مجلة جامعة أم القرى ، السنة التاسعة ، العدد الحادى عشر ، ١٤١٦هـ

٣٠٠٠٠١١-١

وجوه البيان
في دعاء الأَشُدِّ في القرآن

د. سميرة عدلي محمد رزق
قسم اللغة العربيَّة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الملك عبدالعزيز بجدة

٣٠٠٠٠١١

مجلة

جامعة أم القرى

للبحوث العلمية المحكمة

العدد الحادي عشر

السنة التاسعة ، ١٤١٦هـ (١٩٩٥م)

مجلة جامعة أم القرى – جامعة أم القرى – ص.ب: ٧١٥ – مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية ،

هاتف ٥٥٧٤٦٤٤ فاكس ٥٥٦٤٥٦٠

ملخص البحث

يتناول هذا البحث دارسة بيانية لآية دعاء الأشد في القرآن الكريم (سورة الأحقاف (١٥))، كمثال للدعاء العام في القرآن الكريم.

وبينا في هذه الدراسة معنى الدعاء في اللغة والاصطلاح،ثم مفهومنا للدعاء العام، والدعاء الخاص في القرآن الكريم-وتلا ذلك بيان معنى الأشد في اللغة وهو سن الأربعين أو ما قبلها بقليل... وهنا انتقلنا إلى بيان رأي علم النفس في هذه السن،وأكّدنا أن كل ما جاءت به الملاحظات العلمية القيمة في هذا المجال، أو عن هذه المرحلة،إنما هي مطابقة تماماً لما جاء به القرآن الكريم من قبل في آية دعاء الأشد في القرآن ـ موضوع البحث ـ ثم انتقلت الدراسة إلى بيان المعنى العام لهذه الآية كما ورد في كتب التفسير المختلفة..، وبيان مناسبة هذا الدعاء لسياق السورة الواردة فيها وهي سورة الأحقاف.

ثم كانت الدراسة البيانية التحليلية هي لب البحث وجوهره، إذ حاولنا جاهدين في هذه الدراسة توضيح دقة مجيء اللفظ القرآني ـ بعد دراسته لغوياً ـ وفصاحته مع بيان ظلاله الوارفة في موضعه وبين نظائره من سياق الآية الكريمة فضلاً عن دراستنا لبلاغة التراكيب وتناسب العبارات وتناسقها مع رفيقاتها في السياق الكريم أيضا.

ودفعنا هذا إلى وضع تعقيب ومقارنة ... بينا فيهما ذلك الاتفاق بين بداية هذه الآية ـ موضوع البحث ـ وبين بداية آية أخرى تشبهها في سورة النمل (آية رقم ١٨) وذكرنا هنا سبب هذا التشابه أو الاتفاق ـ كما بدا لنا ـ.

ثم أشرنا أيضاً إلى الاختلاف الواضح بين خاتمتي أو فاصلتي الآيتين المذكورتين وذكرنا هنا أيضا ـ ما بدا لنا ـ من سبب في هذا الاختلاف والتباين.

وكان التذييل خاتمة البحث ونهاية مطافه كلّلناه بالعبرة المأخوذة من هذه الآية الكريمة... وهي:

ضرورة التوجه إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأكفّ الضراعة والابتهال الدائم في حالتي الرخاء والشدة، ومهما بلغت مرتبة ذلك الشخص المبتهل من الإيمان والتوفيق..

والله تعالى نسأل أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم إنه نعم المولى ونعم النصير.

المقدمة

الحمد لله، الرحمن، خلق الإنسان علمه البيان والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين وإمام الغرّ المحجلين. سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فقد قمنا من قبل ـ بعون الله وتوفيقه ـ بدراسة بيانية لدعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، مثال للدعاء الخاص في القرآن الكريم.

وها نحن أولا: نتناول في هذا العمل مثالاً للدعاء العام في القرآن وذلك لنكمل ما قد عزمنا عليه من قبل من دراسة لبعض الأمثلة من الدعاء العام والخاص في كتاب الله العزيز.

هذا وقد أشرنا في الدراسة الماضية إلى مفهومنا عن الدعاء العام في القرآن وهو إنه حسب ـ ما لاحظناه من مراجعة آيات الدعاء إنه يعني تلك الآيات التي يمكن أن يتعلمها كل مسلم ليبتهل بها إلى الله عز وجل في أي وقت يريد من أمثال قوله تعالى:(١) ﴿ربَّنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.....﴾إلخ الآيات

وقوله تعالى:(٢) ﴿اهدنا الصراط المستقيم ـ صراط الذين أنعمت عليهم..﴾ إلخ.

أما الدعاء الخاص فقصدنا به ـ حسب مراجعتنا أيضا لآياته في القرآن الكريم ـ هو تلك الآيات التي وردت على ألسنة بعض الأنبياء أو الصالحين من أمثال دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لذريته ولمكة المكرمة.

وفي هذا العمل ـ المتواضع ـ نستعين بالله تعالى ونستهديه في دراسة مثال للدعاء العام في القرآن لاستكمال ما قد بدأنا به من قبل وهذا المثال هو:

دعاء الأشُدّ في القرآن الكريم.

ولعل من أسباب اختيار هذه الآية للدراسة هي :

١- لأنها مثال جيد وواضح للدعاء العام في القرآن، حتى وإن قيل إنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فهذا لايمنع أن تكون دعاء يحرص على حفظه كل مسلم ليلهج به لسانه في أي وقت يريد، لاسيما وأنه ذلك الدعاء الذي يختاره كل من اكتملت واتزنت قواه العقلية وغيرها...

٢- ثم قرب هذه الآية الكريمة ـ لما تحمله من دعوات مخلصات ـ من نفس كل سامع وهزها لقلبه وتأثيرها على مشاعره فلابد أن يكون هذا القارئ أو ذلك السامع لها ـ أباً فيردِّد بعدها ـ آمين ـ أو ابناً، فيرجو أن يرتقي في مراتب الصالحين التائبين، كما يتمنى ألا يحرم هذا الدعاء في مستقبل زمانه من ذريته.

٣- تذكير هذه الآية لكل فرد قد بلغ سن الأربعين ـ أو اقترب منها وهي سن النضج الحقيقي، تذكيرها له بضرورة الرجوع إلى خالقه عز وجل وشكره. فالشكر ضروري لزيادة النعم وبقائها وما أحوجنا إلى هذه الزيادة وذلك الاستمرار.

كما تذكّره بواجب الدعاء للذرية فما أشد حاجتهم إليه وهم يخوضون معمعة الحياة الصاخبة.

كما تدعوه إلى ضرورة التوبة الصادقة التي يجب أن يستقبل بها شيخوخته الواهنة ـ إن كتب له الأجل المديد ـ.

أما منهجنا في الدراسة فقد استقر على النحو التالي:

تمهيد:

يشمل معنى الدعاء في اللغة والاصطلاح ثم معنى الأشد في اللغة وبيان ماهي سن الأشد عند علماء النفس.

أولاً:

أ – ذكر آية دعاء الأشد في القرآن الكريم.

ب– المعنى العام لها.

جـ– مناسبتها في السياق.

د– دراسة الآية وتحليلها بيانياً.

ثانياً – تعقيب ومقارنة.

ثالثاً – تذييل يشمل العبرة من دراسة هذا الدعاء.

الدعاء في اللغة

الدُّعاء بالضَّم ممدوداً (الرغبة إلى ا لله تعالى) فيما عنده من الخير والابتهال إليه بالسؤال ومنه قوله تعالى:(٣) ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾

يُقال دَعَا يَدْعو دَعْوى. فالألف للتأنيث هنا وقال ابن فارس وبعض العرب يؤنث الدَّعوة بالألف فيقول الدَّعْوى.(٤)

وفي الصِّحاح واحد الأَدعية وأصله دُعاء لأنه من دَعَوْتُ إلا أن الواو لما جاءت بعد الألف همزت وتخاطب المرأة (أَنْتِ تدْعينَ ولغة ثانية أنتِ تَدْعُوينَ وثالثة بإشمام العين الضمة ولخطاب الجماعة يقال تَدْعُون(٥)

وجاء في مقاييس اللغة إن :

(الدال والعين والحرف المعتل أصل واحد، وهو أن تميل الشئ إليك بصوت وكلام يكون منك. تقول : دَعَوْتُ أَدْعُو دُعَاءً والدَّعْوَةُ إلى الطعام بالفتح. والدِّعْوَة في النسب بالكسر)

ودَواعِي الدَّهر صُروفه. كأنها تميل الحوادث.

ويحمل مجازاً على هذا الباب أن يقال دَعَا فلاناً مكان كذا، إذا قصد ذلك المكان، يقول ابن فارس (كأنَّ المكان دعاه وهذا من فصيح كلامهم)(٦)

وكأن ابن فارس هنا يريد أن يتسع في توضيح المعنى ليكون عاماً ونقصد بذلك أنه يريد أن يذكر المدى الواسع لاستعمال مادة (دَعَوَ)، فهي ليست فقط مستعملة في إمالة المطلوب من المولى عزَّ وجل في الابتهال، وإنما في أي شيئ يراد إمالته إلى المتكلم ـ حسب كلامه السابق عن هذه المادة ـ.

والدُّعاء في اللغة أيضاً يرد بمعنى الصَّلاة(٧)، واستشهد على ذلك بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:(٨) "إذا دُعي أحدكم إلى طعام فليجب، فإن كان مفطراً فليأكل وإن كان صائما فليصلّ"

وفي نفس المعنى قال الأعشى:(٩)

تقول بنتي وقد قرَّبت مرتحلاً   يارب جنّب أبي الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذي صلّيتِ فاغتمضي   نوماً فإن لجنبِ المرء مضطجعا

الدعاء في الاصطلاح:

وقصدنا هنا بالمعنى الاصطلاحي هو ماورد للدعاء من معان في القرآن الكريم وقد ذكر ذلك الراغب الأصفهاني بقوله :

(الدعاء كالنداء إلا أن النداء قد يقال بيا أو أيا ونحو ذلك من غير أن يضم إليه الاسم، والدعاء لا يكاد يقال إلا إذا كان معه الاسم نحو يافلان، وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر قال تعالى:(١٠) ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَيَسْمَعُ إلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً﴾. كذلك يستعمل في القرآن الكريم استعمال التسمية(١١) كقوله تعالى:(١٢) ﴿لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُوْلِ بَيْنَكُمْ كَدُعَا بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾. وتأتي بمعنى الاستغاثة كقوله تعالى:(١٣) ﴿وإذَا مَسَّ الإنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيْباً إِلَيْهِ﴾. كما تأتي بمعنى الحث على قصد الشئ قال تعالى:(١٤) ﴿وَاللهُ يَدْعُو إلى دَارِ السَّلاَمِ﴾. ووردت أيضا بمعنى الادَّعَاء قال تعالى:(١٥) ﴿فمَا كَانَ دَعوَاهُم إذ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إلاَّ أَنْ قَالُوا إنَّا كُنَّا ظَالِمِيْنَ﴾. وبمعنى الدُّعاء لقوله تعالى:(١٦) ﴿وَآخرُ دَعْوَاهُم أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ﴾.

هذا وقد أشرنا في دراسة سابقة(١٧) مستنبطة من الكتاب والسنة إلى أهمية الدعاء وآدابه وأماكن الدعاء المستجاب وأوقاته... ثم بينا في تلك الدراسة مفهومنا عن الدعاء العام في القرآن الكريم حسب استقراء آيات القرآن الواردة فيه وبينا أنه ذلك الدعاء الذي يمكن ان يتعلمه كل مسلم ليلهج به في إي وقت يريد... وذكرنا على ذلك أمثلة جاء بعضها في المقدمة من الدراسة التي بين أيدينا وفيما يلى من الصفحات سنتناول مثالاً للدراسة والتحليل البياني عن هذا الدعاء وهو دعاء عمر الأشد في القرآن الكريم.

معنى الأشد في اللغة:

والأشد في اللغة هو سن العشرين (ويقال أربعون سنة)(١٨).

ومادة (شد) أصل واحد تدل على قوة في الشئ وفروعه ترجع إليه، ومن هذا الأصل يقال شددت العقد أشد شداً(١٩).

والشديد والمتشدد هو البخيل(٢٠) قال تعالى:(٢١) ﴿وإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيْدٌ﴾.

أما القول حتى يبلغ أسده(٢٢) فهو ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة (وهو واحد جاء على بناء الجمع أو جمع لا واحد له من لفظه)(٢٣).

ونرجح أن يكون الاشد هو سن الأربعين أو ما قبلها بقليل كما جاء في الآية الكريمة(٢٤). ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُوْنَ شَهْرَاً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً قَالَ..﴾ إلخ.

موقف علم النفس من ذلك:

لقد أثبت علم النفس النموي أن مرحلة الرشد المبكر هي التي تمتد من ٢١ سنة إلى ٤٠ سنة وهي مرحلة تلي مرحلتي الطفولة والمراهقة وتسبق مرحلتي متوسط العمر والشيخوخة، وتعتبر في نظر علماء النفس هي مرحلة ذروة الإنتاج إذ يتزن فيها النمو(٢٥).

(ويصبح فيها الفرد قادراً على تعلم المهارات التي لم يمكنه منها اختلال نموه السابق)(٢٦).

كما لاحظ شو نفليد سنة ١٩٦٦م (أن الفرد في مراجعته لعمله تزداد دقته بشكل واضح عند سن الأربعين.)(٢٧).

وحتى الذكاء يصل (إلى ذروة نموه في أواخر المراهقة وقبل الرشد ثم يستقر به الأمر على مستوى محدد لايكاد يتعداه طوال مرحلة الرشد)(٢٨) ثم يبدأ انحداره بعد ذلك.

كما (يسفر الرشد عن مستويات القوى البشرية التي وصلت إلى اكتمال نضجها وتمام تكوينها ووظيفتها، وقد تمتد بعض هذه القوة إلى الشيخوخة، فيصبح الرشد إرهاصاً لها..)(٢٩).

وهكذا نستنتج أن هذه الملاحظات العلمية القيمة قد جاءت مطابقة تماماً لدقة القرآن الكريم من قبل في تحديد سن الأشد وهو الأربعون سنة، كما ندرك الدقة العظيمة في استعمال لفظ (أشدَّهُ) وهو تعبير قرآني جميل بدلاً من لفظ (رُشده) المستعمل في علم النفس فيما بعد، لأن (أَشُدَّهُ) أكثر عمومية من (رشده)

فهي على حسب ما بينا(٣٠). تعني القوة في كل شيء، وبهذا يكون الرشد(٣١) هو احد هذه الاشياء التي يشملها (الأشد) بمعنى القوة في الرشد وغيره.

ومن هذا المنطلق سنتفيأ في الصفحات القليلة المقبلة ظلال الآية الكريمة التي شملت دعاء سن الأشد في القرآن الكريم وما حظيت به هذه الآية الكريمة ـ كسائر الآيات ـ من بيان ساحر.

قال تعالى:(٣٢) ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُوْنَ شَهْراً حَتَّى إِذَاْ بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً قَاْلَ رَبِّ أَوْزِعْنِيْ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِيْ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَاْلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَاْلِحاً تَرْضَاهُ وَاصْلِحْ لِي فِيْ ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ﴾.

المعنى العام:

تبين الآية الكريمة الأسلوب التربوي السليم في التوجيه والتقويم إذ دل السياق الكريم على ضرورة الإحسان إلى الوالدين والاهتمام ببرهما وحسن معاملتهما.... والأسباب والمبررات معلومة لدى الجميع ومع ذلك يبديها القرآن الكريم لتكون أدعى للاستجابة لهذه الوصية وأقوى في الإلزام بها... وتركز الآية هنا على إظهار مشقة الأم في الحمل والوضع والرضاع وهي ثلاث مراحل لا تعفى الأم من إحداهن إلا نادراً ـ وذلك في حالة عدم رضاعها لابنها... ثم ما يلي ذلك من رعايته وتربيته وهي مرحلة أكثر مشقة من سابقاتها حتى يبلغ هذا الوليد أشده. وقيل ثلاث وثلاثون سنة أو بلوغ الحلم ، أي إذا كتبت له الحسنات، وكتبت عليه السيئات(٣٣).

نقول حتى إذا بلغ هذا الإنسان هذه السن وبلغ فيها ما بلغه من القوة والشباب والرجولة ـ وعرف حق الله عليه فيما ألزمه من بر والديه تفرغ لنفسه واتجه لربه بالضراعة والخشوع ليطلب الشكر على نعمة التوحيد والهداية والإقرار بها والعمل بطاعة ربه عز وجل ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم(٣٤).

كذلك لاينسى في هذه الحال أن يطلب التوفيق للعمل الصالح الذي يرضاه عز وجل والاصلاح في الذرية لأن صلاح الذرية أمنية يتمناها الأبوان لاسيما عند بلوغهما من الكبر عتياً... ثم يذيل السياق الكريم هذا الدعاء بالتوبة والأوبة إلى الله عز وجل والإستسلام لأمره ونهيه والانقياد لحكمه وطاعته ـ سبحانه وتعالى ـ وقد قيل إن هذه الآية الكريمة قد نزلت في أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ (٣٥)،

إذ إنه دعا بذلك عند بلوغه الأربعين فاستجاب له الله وأسلم والداه وإخوته وولده كلهم(٣٦).وقيل: إن العمل الصالح الذي طلب رضا الله عنه فأجابه ـ عز وجل ـ هو عتقه تسعة من المؤمنين يعذبون في الله، منهم بلال بن رباح، وعامر بن فهيرة، ولم يدع شيئا من الخير إلا أعانه الله عليه(٣٧).ومما يؤيد ذلك أنه جاء في الصحيح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :(٣٨)

"من أصبح منكم اليوم صائماً"؟ قال أبو بكر: أنا.

قال: "فمن تَبِع منكم اليوم جنازة"؟ قال أبوبكر: أنا.

قال: "فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً"؟ قال أبوبكر: أنا.

قال: "فمن عاد منكم اليوم مريضاً"؟ قال أبوبكر: أنا.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما اجتمعن في امرئ إلادخل الجنة".

فالحديث الكريم يدل على إعانة الله عز وجل وتوفيقه واصطفائه لأبي بكر لفعل كل هذه الحسنات في يوم واحد، إذا ليس من السهل أن يوفق مسلم ما لكل هذه الأعمال في اليوم نفسه. فذلك فضل الله تعالى على أبي بكر.

مناسبة الآية للسياق :

بعد أن ذكرت الآيات الأولى من السورة الكريمة مكانة القرآن الكريم وأهمية خلق السموات والأرض وما بينهما وما ينبغي للناس من التصديق والإيمان والتوحيد لله ـ عز وجل ـ واتباع نبيه الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما جاء به(٣٩).

ثم ذكرت أيضا حال المشركين وتكذيبهم لهذا الحق المبين ومحاولة إقناع الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم وتذكيرهم بإعتراف الكتب السابقة(٤٠).

نقول بعد هذا كله: أكد السياق الكريم ما ينتظر المؤمنين الصادقين من نعم وسعادة في الدار الآخرة جزاءً وِفاقاً لحسن أعمالهم(٤١).

وبمناسبة الحديث عن جزاء العمل الصالح هذه الوصية القيمة في هذه الآية التي نحن بصددها، إذ إن إحسان الإنسان إلى والديه من أكرم الأعمال وأجلها بل قد تكون سبباً من أسباب سعادته في دنياه وآخرته، ثم يأتي الدعاء هنا وهو مناسب تماماً للسياق الكريم لأن من تمام العمل الصالح أن يتجه الإنسان بقلبه

ومشاعره إلى بارئه متضرعاً لاهجا بالشكر له والثناء عليه أولاً(٤٢) ثـم يدعـو بمـا يريد.

ولايفوتنا هنا أن نذكر ما جاء في الحديث الشريف:(٤٣) عن أبي هريـرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : "ليس شئ أكرم على الله من الدعاء".

ولا أدل على التحام هذا الدعاء ومناسبته للسياق الكريم مما جاء بعده أيضاً، إذ إن معنى الآية التالية له مباشرة يظهر فيه الثمرة المرجوة منه بعد ذلك(٤٤) وهـي تقبل المولى ـ عز وجل ـ لأحسن أعمال الداعيين والتجاوز عن سيئاتهم بل ويصلـح لهم من سيئات أعمالهم التي عملوها في الدنيا فلا يعاقبهم عليها(٤٥) وتكون الجنـة نهايتهم ـ ونعم المصير ـ قال تعالى:(٤٥)

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُـمْ أَحْسَـنَ مَـا عَمِلُـوا وَنَتَجَـاوَزُ عَـنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِـي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾

دراسة الدعاء وتحليله بيانياً:

لنعد هنا إلى نص الدعاء كما ورد في الآية الكريمة:

... رَبِّ أَوْزِعْنِيْ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِيْ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَاصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

نلاحظ الجُملة (قَالَ رَبِّ) إذ بدأت بالفعل "قال" وهو أبلـغ في موضعـه مـن الفعل "دعا" مثلاً،وذلك لأن نص الدعاء ورد صريحـاً في قولـه "رب" أي يـارب، إذ حذفت ياء النداء هنا وعوّض عنها ياء المتكلم بالكسر للتخفيف(٤٦).

ثم لنتأمل كيف استهل هذا الدعاء بلفظ (رب) وهي لفظ تدل في اللغة على: (الملك والسيد والمدبر والمربي والمنعم)(٤٧).

ويراد بها الله عز وجل ملك الملوك وإذا أضيفت يمكن أن تطلق عليه جل وعلا مثل رب العالمين أو على غيره فيقال رب كذا مثل ربالبيت أي سيده وجمع الرب أربة وأرباب قال تعالى:(٤٨) ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

وبتأمل هذا المعنى اللغوي للفظ (رب) ثم ملاحظة استهلال الدعاء بها مع إضافتها لياء المتكلم نقول بتأمل ذلك نشعر بكمال الخضوع والتذلل من الداعي مما يكون أدعى للاستجابة له والقبول عند الله عز وجل(٤٩) لذا كانت لفظة (رب) التي تفيد الخصوص هنا هي التي يفضلها السياق الكريم عن لفظ الجلالة يا (الله) مثلاً الذي يفيد العموم، يقول في ذلك أبو حيان رحمه الله:

(وناداه بلفظ الرب مضافاً إليه لما في ذلك من تلطف السؤال والنداء بالوصف الدال على قبول السائل وإجابة ضراعته)(٥٠).

ثم جاءت الجملة (أوزعني) والملاحظ أن الفعل فيها جاء بصيغة الأمر، وقد خرج هنا إلى معنى الدعاء لأنه صاعد من العبد الذليل إلى الرب الجليل عز وجل(٥١).

أما مادة (وَزَعَ) في اللغة فكما ذكر ابن فارس إنه بناء موضوع على غير قياس ولها استعمالان:

الأول: ويعني الكف والحبس كما يقال (مايزع السلطان أكثر مما يزع القرآن)(٥٢).

الثاني: ويعني الإلهام أو الولع بالشيء قال ابن فارس: (يقال : أَوْزَعَ ا للهُ فلاناً الشُكرَ، أَلْهَمَهُ إيَّاه. ويُقال:هو مِن أُوزِع بالشَّيء، إذا أُولِعَ بـه، كأنَّ ا لله تعالى يولعِه بشُكره. وبها أَوْزَاعٌ مِنَ النّاسِ أي جَمَاعَات)(٥٣).

والأنسب للسياق هو المعنى الثاني أي الإلهام والولع(٥٤) وهنا نلمح جمال اللفظ في موقعه إذ إن المؤمن قد تشغله هموم الدنيا وأعباء الحياة عن تذكر أهم النعم المسبقة عليه كالإسلام وتوحيد ا لله عز وجل(٥٥).

لذا كان جميلاً أن يلهمه ا لله تعالى ـ ومن أفضل منه ملهماً؟! بل ويولعه أيضاً بشكر هذه النعمة،

لاسيما وأن الشكر من أهم أسباب المحافظة على النعمة واستمرار زيادتها قال اعالى :(٥٦) ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأزِيْدَنَّكُمْ﴾.

وقد جاءت السنة المطهرة مؤيدة لهذا المعنى مؤكدة عليه إذ كان من وصايا رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي ا لله عنه ان قال له:(٥٧) "يا معاذ إني وا لله لأحبك فلا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكر وشكرك وحسن عبادتك".

ولايفوتنا هنا أن ننوه بفضل القرآن الكريم والسنة المطهرة في هذا الجانب التربوي الجليل، فمن رحمة ا لله تعالى بعبيده أن يعلمهم كيف يحافظون على ما أوتوا من النعم،وكيف يزيدهم من فضله جزاء لذلك الشكر... إنه ـ عز وجل ـ لايعطي النعمة ويمن بها فحسب، بل ويضع لنا المنهج السليم لزيادتها ونموها، ثم

قس على ذلك كل ما يصادف المرء في حياته من خيرات... الواجب أن يشكر اولاً لصاحب النعمة الأول ـ سبحانه وتعالى ـ ثم لا ينسى أن يتبع ذلك الشكر بشكر آخرلمن سخره الله من الخلق لتيسير الوصول إلى هذه النعمة، إذا لاشئ أسوأ من جحود النعمة ونكران الجميل.

ثم يأتي قوله (أنْ اشْكُرَ نِعْمَتَكَ) بصيغة المصدر المؤول من أن والفعل بدلاً من المصدر الصريح مثلاً مع إمكان مجيئه في السياق، إلا إننا نرى في هذا التركيب — والله أعلم ـ سبباً بليغاً وهو إرادة المتكلم إطالة الحديث مع المخاطب ـ عز وجل ـ فالداعي عبد ذليل متضرع إلى بارئه والمنعم الأول عليه، والمتوجه إليه بالدعاء هو رب العزة ـ سبحانه وتعالى ـ الذي ليس أكرم عليه من الدعاء والذي يحب من عبده الإلحاح في المسألة إذ قال صلى الله عليه وسلم في ذلك:(٥٨) "ليس شئ أكرم على الله ـ سبحانه وتعالى ـ من الدعاء".

وقال أيضا:(٥٩) "من سأل الجنة ثلاث مرات قالت الجنة ـ اللهم أدخله الجنة ومن استجار من النار ـ ثلاث مرات قالت النار: اللهم آجره من النار".

ولنتأمل هنا استعمال السياق الكريم جملة (أشكر) والتي قد يمكن أن يكون بدلاً منها (أحمد) مثلاً، لأن الشكر يمكن أن يكون حمداً وليس كل حمد شكراً، قال الأصفهاني:(٦٠) (والشكر لايقال إلا في مقابلة نعمة فكل شكر حمد وليس كل حمد شكراً...).

وجاء في تاج العروس عن الشكر:(٦١) (إن الشكر يكون بالقلب خضوعاً واستكانةً وباللسان ثناءً واعترافاً، وبالجوارح طاعةً وانقياداً، ومتعلقه المنعم دون الأوصاف الذاتية فلا يقال شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه وهو

المحمود بها كما هو محمود على إحسانه وعدله والشكر يكون على الإحسان والنعم فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس فإن الشكر يقع بالجوارح والحمد باللسان). وفي موضع آخر من التاج ذكر عن ثعلب أن الحمد يكون عن يد وغير يد. أما الشكر فلا يكون إلا عن يد. وأيدَّه في ذلك الأزهري، وقيل: الحمد هو الرضا والجزاء وقضاء الحق(٦٢).

وفي ضوء هذا المعنى اللغوي الجميل نلمح البلاغة القرآنية في مجيء جملة (أشكر) هنا إذ إن الشكر في هذا الموضع شمل الحمد والثناء على المعطي الأول ـ عز وجل ـ وهذا هو المطلوب في الدعاء حتى يكون مستجاباً بإذن ا لله تعالى(٦٣).

وهو على هذا يتضمن معنى الذكر فضلاً عما تضفيه صيغة المضارع من معنى التجدد والاستمرارية اللازمين لهذا الذكر، وكأن الداعي يريد أن يلهم تجدد ذكر هدايته للإسلام إلى الحد الذي لا يغادر شكرها وذكرها قلبه حتى يعاوده ولا يفارق لسانه إلا ليشغله وهكذا يظل ذاكراً لله شاكراً على نعمة واحدة هي أجل النعم فكيف به أمام نعم ا لله جميعاً ؟!.

ويلاحظ هنا أيضاً إضافة النعمة إلى كاف الخطاب في قوله: (نعمتك) وهذا دليل لفظي على الاعتراف بحق صاحب تلك النعمة والمتفضل الأول بها ـ سبحانه ـ ويتمم ذلك الاعتراف اتصال ياء المتكلم بحرف الجر في قوله تعالى (علي) ثم بالمثنى (والدي) ثم ما يتبع ذلك الدعاء من طلب العمل الصالح الذي يرضاه رب العزة ـ سبحانه وتعالى ـ حيث يقول عز من قائل:(٦٤) ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾ قال أبو حيان:(٦٥) "ولما سأل ربه شيئاً خاصاً وهو شكر النعمة سأل شيئاً عاماً وهو

أن يعمل عملاً يرضاه الله تعالى فاندرج فيه شكر النعمة فكأنه سأل إيزاع الشكر مرتين...".

كما لا يفوتنا هنا هذا القيد الذي قيد به العمل الصالح المطلوب ـ وهو الذي يرضاه عز وجل دون سواه.... لأن من الأعمال الصالحة ما يمكن أن يرضى عنها صاحبها ويرضاها أيضا مولاه عز وجل ومنها ما يظن فاعله فيه الصلاح ويرضاه ولكن لايكون كذلك عند الله سبحانه وتعالى(٦٦).

جاء في القرآن الكريم:(٦٧) ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُم فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُم يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾.

لذا يجب أن يتحرى المرء الدقة والصواب في عمله وفي دعائه حتى يرقى إلى أحسن الدرجات وأحمدها عند الله ـ عز وجل ـ.

ولعل في تقديم الدعاء بالشكر وعمل الصالحات على الدعاء بصلاح الذرية، لعل في ذلك نكتة بلاغية دقيقة إذ إن المتقدمين هنا هما أكثر أهمية من غيرهما، وتعود أهميتهما إلى أن كل منهما اشتغال بتعظيم الله عز وجل، ودليل على الوفاء بحق الطاعة وكمال الخضوع. أما المطلوب الثالث وهو المتأخر فأقل أهمية لأنه خاص بخلق الله عز وجل، إذ لا مجال هنا للمقارنة بين أهمية الأمرين، فالفرق كبير ولاشك، يقول الفخر الرازي في ذلك:

(والاشتغال بالطاعة الظاهرة اشتغال بطلب النعم المستقبلة وقضاء الحقوق الماضية يجري مجرى الدين وطلب المنافع المستقبلة طلب للزوائد. ومعلوم أن قضاء الدين مقدم على سائر المهمات. فلذا يجب الشكر على سائر الطاعات، وأيضاً قدم

طلب التوفيق على الشكر، وطلب التوفيق على الطاعة على طلب أن يصلح له ذريته، وذلك لأن المطلوبين الأولين اشتغال بالتعظيم لأمر الله والمطلوب الثالث اشتغال بالشفقة على خلق الله ومعلوم أن التعظيم لأمر الله يجب تقديمه على الشفقة على خلق الله)(٦٨).

والملاحظ هنا أن طلب الشكر جاء شاملاً لآلاء الله عليه وعلى والديه، بينما طلب العمل الصالح يعود لداعي وحده، وذلك لأن طلب الشكر على نعم الوالدين سببه أن أي نعمة مسبغة عليهما لابد وأن تصل ثمرتها إلى ذريتهما وإن بعد بهم الزمن(٦٩)، بينما في طلب العمل الصالح يكون العكس تماماً، لأن صلاح الأبناء تصل ثمرته إلى الوالدين حتى بعد وفاتهما، ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول:(٧٠) "خير ما يخلف الرجل من بعده ثلاث: ولد صالح يدعو له وصدقة تجري يبلغه أجرها وعلم يعمل به من بعده".

فالأعمال الصالحة المرضي عنها من المولى عز وجل - هي سبب في صلاح العبد... وصلاح العبد ضروري لاستجابة دعائه وهكذا ينتفع الأبوان بدعاء ذريتهما الصالحة حتى بعد وفاتهما ـ فسبحان الله تعالى ـ يستمر عدله مالئاً للكون منظماً له تنظيماً يعجز الخلق أمامه ويبقى ـ سبحانه ـ عظيماً متفرداً بوحدانيته وملكوته لايشاركه فيهما أحد.وتتجلّى بعض مظاهر هذه العظمة الإلهية الفذة في إعجاز القرآن في بلاغة تراكيبه وفي عباراته المنسابة انسياب الماء العذب في الجداول والغدران يعطيك المعاني الجميلة في ألفاظ وارفة الظلال عميقة الجذور وها نحن أولاءِ نتفيأ ظلال هذه الألفاظ إذ يقول تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾.

فالصلاح في اللغة هو: خلاف الفساد يقال: (صَلَح الشيء يصلُح صَلاحاً. ويقال صَلَح بفتح اللام وحكى بن السِّكيت صَلَح وصَلُح ويقال صَلَح صُلُوحاً. قال:

وكيف بأطرافي إذا ما شتمتني وما بعد شتم الوالدين صُلُوح

وقال بعض أهل العلم: إن مكة تسمى صلاحاً(٧١).

ومن هذا المعنى اللغوي ندرك دقة القرآن الكريم في اختيار الجملة بين قرائنها في السياق... فجملة (أصلح) هنا دقيقة الوضع، جميلة الجرس، أما دقتها وبلاغتها فتبدو عندما تقارن بجملة أخرى مثل (اهدِ) وهي من أصل (هدى) أي التقدُّم للإرشاد وقد يتشعب المعنى فيقال الهدى وهي خلاف الضلالة... فهذا أصل معلق بهداية الطريق ونحوه(٧٢) قال تعالى:(٧٣) ﴿إهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بعد قوله عز وجل:(٧٤) ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَاكَ نَسْتَعِيْنَ﴾ فطلب الهداية إلى طريق الحق بعد العبادة والاستعانة(٧٥).

وكأنَّ المعنى هنا يوحي بجانب من جوانب الإصلاح وليس كله.

أما جملة (أصلح) فتشمل الهداية أيضاً لأن المرء إذا صلح هدى إلى طريق الحق والصواب وهذا ما يتمناه كل أب لابنه. إصلاح بكل ما في هذا المعنى من زوايا مضيئة وظلال وارفة حميدة.

ولا أدل على هذا الجمال من مجيئ جملة (أصلح) مع جاراتها.. وتناسب جرسها القرآني المريح مع ما سبقها في نفس الآية الكريمة، قال تعالى:(٧٦) ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي..﴾ فضلا عن ما يتوقعه السامع من ألفاظ

محذوفة فيزيد المعنى بحذفها جمالاً واتساعاً وعمقاً، فالسامع لهذا التركيب الجليل: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ يتوقع بعده طلباً معيناً لاسيما بعد قوله: (فِيْ ذُرِّيَّتِي) إنه ينتظر هنا أمراً معيناً أو تعداد أمور مختلفة يرجو فيها الإصلاح في هؤلاء الذرية ولكن... الجمال يكمن هنا في حذف العبارة القرآنية لها، لينطلق فكر السامع وعقله في تقدير هذا المحذوف الجميل، ولأن الغرض من هذا الحذف هو ذكر الفعل على جهة الإطلاق لا التحديد(٧٧).

ذلك هو القرآن العظيم في بلاغته المتفرد بحسن إيجازه وجميل إطنابه.

ثم لنتأمل في السياق الكريم قوله (لِي) بعد جملة (وَأَصْلِح) ذلك الجار والمجرور، وما أوحاه من شعور أبوي عميق صادق فيه قمة التلاحم والإنتماء بين الأب وأبنائه، ثم ما يطبعه في نفس السامع من شعور بحاجة الأب الصادقة القوية إلى صلاح ذريته وطاعتهم له... فلا شيء أسوأ من عقوق الوالدين ولا أشد مرارة عليهما من تجرع مرارة كأس فساد الأبناء وعدم استقامتهم ـ والعياذ با لله.

أما قوله: (فِي ذُرِّيَّتِي) فقد ذكر الألوسي أن (أَصْلِح) نزل منزلة الفعل اللازم ليفيد سريان الصلاح فيهم وكونهم كالآنية المحتوية على الشيء، المحتفظه به لتمكنه فيهم.(٧٨) وإلا صحَّ أن يقال : وأصلح لي ذريتي.

وقيل: (عُدِّي بغي لتضمُّنهِ معنى اللُّطف أي اللطف بي في ذريتي، والأول أحسن)(٧٩).

ونميل هنا إلى جمال القولين السابقين مادام أحدهما لايعارض الآخر ولا يتنافى مع صحته؛ إذ لا مانع أن يكون لطف الله عز وجل كامناً في الأبناء باحتوائهم الصلاح والتقوى في أنفسهم.

ويرى صاحب الظّلال أن طلب الصلاح في العمل يمتد برغبة أكيدة من العبد المؤمن إلى ذريته(٨٠) فيقول في ذلك: (وهذه ثالثة وهي رغبة القلب المؤمن في أن يتصل عمله الصالح في ذريته، وأن يؤنس قلبه شعوره بأن في عقبه من يعبد الله ويطلب رضاه. والذرية الصالحة أمل العبد الصالح. وهي أكثر عنده من الكنوز والذخائر وأروح لقلبه من كل زينة الحياة. والدعاء يمتد من الوالدين إلى الذرية ليصل الآجيال المتعاقبة في طاعة الله)(٨١).

ثم يأتي بعد ذلك قوله تعالى:(٨٢) ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فالملاحظ ابتداء العبارة ـ بعد هذا المطلب العزيز، وهو صلاح الذرية ـ نقوله الملاحظ ابتداء العبارة بحرف التوكيد (إنَّ) الذي يعطي المعنى قوة وجمالاً. فتأكيد التوبة هنا أمر لا يقل أهمية عن المطلب السابق إذ لا فائدة من الدعاء ولا استجابة له إذا لم يكن الداعي متجهاً إلى ربّه بكل مشاعره وجوارحه(٨٣) ولا أدل على تلك الإنابة والخشوع والخضوع التام من اتصال ضمير المخاطب بحرف الجرّ "إلى" في قوله (إليك) ثم إتمام هذا المعنى وتوكيده بقوله تعالى ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وهو ما يسمى بالتذييل في علم البلاغة(٨٤).

فالتوبة في اللغة هي الرجوع، يقال: (تاب من ذنبه، أي رجع عنه إلى الله توبة متاباً، فهو تائب، والتّوبُ التّوبة)(٨٥).

أما الإسلام فهو الانقياد لأنه يسلم من الإباء والامتناع(٨٦).

وجاء في أساس البلاغة: (أدرك فلان زمن التوبة أي الإسلام لأنه يتاب فيه من الشرك)(٨٧).

ونرى في هذا المعنى الأخير مايؤيد أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي ا لله عنه إذ أنه قد أدرك حقا زمن الإسلام وتاب إلى ا لله متاباً، وأصبح خليفة رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ـ كما نعلم ـ.

أما قول أبي حيان: إن الآية من المشكِل لأنها مكية و لم يُسلم ولد أبي بكر إلا عام الفتح والنص القرآني يقول: ﴿..أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ﴾.

أي طلب أن يلهم الشكر على النعمة التي أنعم ا لله بها عليه وعلى والديه وقد ذكرنا من قبل إن النعمة هي نعمة التوحيد، فنرد على هذا بنقطتين:

أولها: إن من واجبات الابن البار تجاه والديه الدعاء لهما لاسيما إذا كان ذلك الابن تقياً صالحاً، وقد ذكر ذلك أبو حيان نفسه بقوله: (وقيل ألهمني الشكر وأدرج ذكر نعمة ا لله على والديه في أن يشكرهما كما يشكر نعمة ا لله على نفسه لما يجب للوالد على الولد من الدعاء لهما والبر بهما ولاسيما إذا كان الولد تقياً لله صالحاً فإن والديه ينتفعان بدعائه وبدعاء المؤمنين لهما بسببه كقولهم:رحم ا لله من خلفك رضي ا لله عنك وعن والديك(*)

والثانية: إن لفظة (نعمتك) هنا حتى وإن أريد بها نعمة التوحيد، ومعلوم أن والده لم يسلم إلا عام الفتح فهو من باب استعمال المفرد في مكان الجمع على عادة القرآن في نظائره كما جاء في قوله تعالى(*) ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيْناً لِيَغْفِرَ لَكَ ا للهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً

مُسْتَقِيْماً﴾. فالفتح نعمة والمغفرة نعمة والهداية نعمة فضلاً عن النعم الكثيرة السابقة لفتح مكة سواء كانت ظاهرةً أو باطنةً،فالعبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

أما إذا اعتبرنا أن المقصود بها نعمة التوحيد والإسلام فإن إسلام أبي بكر رضي الله عنه وتوحيده يعود فضله وبركته إلى أبيه حتى وإن لم يسلم قبل الفتح لأنه إبن صالح وكما ذكرنا ـ صلاح الأبناء تمتد بركته وفضله إلى الآباء وهذا ما ذكره أبو حيان نفسه في النص السابق.

ثانيا: تعقيب ومقارنة:

من الملاحظ أن هذه الآية الكريمة تتفق في بعض عباراتها مع ما جاء في سورة النمل في قوله تعالى:(٨٨) ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلَهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحَاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ﴾.

ـ رضي الله عنه ـ لما وهبه الله من نعمة الإيمان والتصديق بمحمد "صلى الله عليه وسلم"(٨٩).

أمَّا طلب العمل الصالح الذي يرضاه الله عز وجل فهذا شأن كل عبد صالح فكيف بالنبي سليمان بن داوود ـ عليهما صلوات الله وسلامه ـ وكيف بأبي بكر الصديق خليفة رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم؟!.

أما جانب الاختلاف فهو في خاتمة كل من آية (سورة النمل)(٩٠) وخاتمة آية سورة الأحقاف(٩١) ـ كما أسلفنا ـ ولعل سبب هذا الاختلاف في السياق هو:

إن العبارة الواردة على لسان سيدنا سليمان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في آية سورة النمل(٩٢) في قوله: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِيْنَ﴾. فيها ترقي في الدعاء فبعد أن طلب العمل الصالح طلب أن يكون هو من الصالحين وهذا ما يتمناه كل إنسان على مر القرون يتمناه كل من وهب نعمة العقل والاتزان، فكيف لايطلبه نبي هو من نسل إبراهيم ـ عليه السلام ـ ذلك النبي الذي أوتي من التواضع وهضم النفس ما أوتيه غير من الأنبياء والمصطفين الأخيار فقد جاء على لسان سيدنا يوسف عليه السلام قوله تعالى:(٩٣) ﴿...تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾. فالصالحون هم الذين كثر منهم صالح الأعمال، أما آية سورة الأحقاف التي نحن بصدد الحديث عنها فقد اختتمت بقوله تعالى:(٩٣) ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

وكما أسلفنا أنها واردة على لسان أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ والفترة التي قالها فيها هي فترة ظهور الإسلام وشريعته. ـ وكما نعلم ـ أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ قد ترك الجاهلية وتاب إلى الله وكان أول المصدقين برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وقد تُقبلت توبته وارتقى إلى أن أصبح خليفة المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبي الرحمة الذي نزل عليه القرآن ذلك الكتاب الذي شرع فيه دين الإسلام ذلك الدين الذي أكد على اعتناقه ـ رضي الله عنه له ـ بقوله "وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ" بينما لايناسب ذلك خاتمة آية صورة النمل لأن الله تعالى قد فضل داوود وسليمان على كثير من المؤمنين(*)

وكأنَّ آية الأحقاف هنا تتحدث عن جنس الإنسان المسلم لرب العالمين بفطرته وبهذا اتضح الاختلاف بين خاتمتي الآيتين السابقتين(٩٤).

ومن أمثال هذه اللطائف ندرك بعض أسرار إعجاز القرآن الذي بهر العقول وأخذ القلوب بصدق أخباره وقوة عباراته مع مناسبتها للزمان والمكان والأفهام(٩٥).

وصدق عز من قائل:(٩٦) ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيْهِ اخْتِلَافاً كَثِيْراً﴾.

تذييل:

لعل العبرة من هذا الدعاء تكمن في ضرورة الرجوع إلى الخالق ـ عز وجل ـ في كل الأمور ومع تغير الأحوال والأزمان.. لاسيما في حالة الرخاء قبل الشدة حتى لايكون المسلم بعيداً عن بارئه ـ سبحانه ـ في لحظات السعادة.. متوجهاً إليه ضارعاً في شدته زحتى لايكون من أولئك الذين قال القرآن الكريم فيهم:(٩٧) ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الْشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً﴾، نعم عليه أن يعترف لفضل الله وآلائه عليه في كل لمحة ونفس من حياته ومع كل نبضة قلب ولمحة بصره وقد أوصى بذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أوصى ابن عباس رضي الله عنه بقوله:(٩٨) (ياغلام ـ أو ياغليم ـ ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ فقلت: بلى فقال: احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك، تعرف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة).

والرخاء قد يكون بسعادة النفس أو بكمال الصحة وسلامة البدن أو بزيادة المال والبنين أو أشياء أخرى يختلف مقياسها من شخص لآخر..

لذا لابد من العودة إلى الله فيه والشكر له ـ عز وجل ـ على ذلك.وعليه أيضاً أن يستزيد من العمل الصالح المرضي لله ـ عز وجل ـ.. وأن يجدد التوبة

ويجلي القلب دائما بذكر الله واستغفاره، وألا يغتر ببعض أعماله الصالحة فهذا أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ على كثرة أعماله الطيبة من عتق وصوم واتباع جنازة وجهاد في سبيل الله بالمال والنفس...إلخ(٩٩) ورغم إنه من العشرة المبشرين بالجنة... وهو خليفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي نزلت فيه هذه الآية(١٠٠) التي تدل على شكره لله ـ عز وجل ـ وحرصه الشديد على كل خير مع أوبته وتوبته المتجددة، واستسلامه لبارئه وانقياده له بالطاعة نقول هذا هو حال أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه مع ربه فكيف بنا نحن في هذا الزمان الذي طغت فيه حاجات العصر علينا إلى الحد الذي قد ينسى فيه الإبن أباه أو الأب أبناءه في معركة الحياة الضارية العنود؟!.

نسأل الله تعالى أن يجزي عنا نبينا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعلمنا الأول خير الجزاء، وأن يرضى عن خليفته الصديق رضاه عن الشهداء والأبرار الصالحين وعن كل من يعلمنا حرفاً نستضيء به في ظلمة الجهل المطبقة ونخوض به غمرات الحياة الطاغية وأن يجعلنا في زمرة المخلصين الصالحين العائدين إليه المسلمين له ـ إنه على كل شيء قدير ـ.

سبحان ربِّك ربِّ العِزَّةِ عمَّا يَصِفون وسلام عَلى المرسلين والحمد لله ربِّ العالمين.

الحواشي

١- سورة البقرة ٢٨٦.

٢- سورة الفاتحة ٦-٧.

٣- سورة الأعراف ٥٥.

٤- تاج العروس من جواهر القاموس / محمد مرتضي الزبيدي ط١ المطبعة الخيرية بجمالية مصر "دعو".

٥- نفسه "دعو" (بتصرف).

٦- مقاييس اللغة. ابن فارس ط١ القاهرة ١٣٩٦هـ "دعو"

٧- نفسه "صلى".

٨- صحيح مسلم بشرح النووي (صيام ١٥٩) ط٢ عام ١٩٧٢م دار الفكر بيروت.

٩- مقاييس اللغة "صلى".

١٠- سورة البقرة ١٧١.

١١- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني. تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني. دار المعرفة بيروت "دعا".

١٢- سورة النور ٦٣ (خوطب بها من كان يدعوه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيا محمد ويا أحمد).

١٣- سورة الزمر ٨.

١٤- سورة يونس ٢٥.

١٥- سورة الأعراف ٥.

١٦- سورة يونس ١٠.

١٧- بحث عن (وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام نشر في العدد العاشر عام ١٤١٤هـ من مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ــ الرياض.

١٨- مقاييس اللغة "شَدَّ"

١٩- نفسه "شَدَّ" (بتصرف).

٢٠- القاموس المحيط مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي (الشدة) ط٢ سنة ١٩٥٢م مكتبة الحلبي.

٢١- سورة العاديات ٨.

٢٢- القاموس المحيط "الشدة" (بتصرف).

٢٣- نفسه "الشدة"

٢٤- سورة الأحقاف ١٥ ـ وردت آيات كثيرة في هذا المعنى مثل سورة يوسف(٢٢)، وسورة القصص(١٤) وغيرها.

٢٥- الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة، د. فؤاد البهي السيد ص٣٥٦ـ ط١ دار الفكر العربي القاهرة ـ (بتصرف).

٢٦- نفسه. نفس الصفحة.

٢٧- نفسه ص٣٩٩.

٢٨- نفسه ص٤١٦.

٢٩- نفسه ص٤١٧.

٣٠- فضلاً انظر معنى الأشد في اللغة ص١٠ من هذا البحث.

٣١- الرُّشْد والرَّشَد. خلاف الغي. فضلا انظر مقاييس اللغة (رَشَدَ).

٣٢- سورة الأحقاف ١٥.

٣٣- جامع البيان عن تأويل آي القرآن ـ الطبري ٢٦/١٦، ط٣ مكتبة مصطفى الحلبي وشركاه (بتصرف).

٣٤- نفسه ـ نفس الصفحة (بتصرف) كذلك تفسير ابن كثير ٤/١٥٨ دار الفكر لبنان (بتصرف).

٣٥- ذكر أبو حيان إن هذا من المشكل لأن الآية نزلت في مكة ولم يسلم والده إلا عام الفتح، انظر في تفسير البحر المحيط. محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي ص٦١/٨ ظ٢ سنة ١٩٨٣م، دار الفكر بيروت (بتصرف).

٣٦- فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير ـ محمد بن علي الشوكاني ٢٠/٥ ط٢ سنة ١٩٦٤م مكتبة مصطفى الحلبي وشركاه (بتصرف).

٣٧- تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن. أبو عبدا لله القرطبي ٦٠١٥/٧ كتاب الشعب (بتصرف).

٣٨- صحيح مسلم ـ (فضائل الصحابة)١٢.

٣٩- سورة الأحقاف ١-٦ (بتصرف).

٤٠- سورة الأحقاف ٧-١٢ (بتصرف).

٤١- نفس السورة ١٣-١٤ (بتصرف).

٤٢- الدعاء: عبدا لله الخضري. ص٢٥ ط٢ سنة ١٩٨٢م سلسلة تصحيح عقائد المسلمين وأعمالهم. الدار السلفية. الكويت.

٤٣- تحفة الأحوذي في شرح سنن الترمذي ٩/٣٠٩ الطبعة السلفية.

٤٤- جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٨/٢٦ (بتصرف).

٤٥- سورة الأحقاف١٦.

٤٦-أصل الكلام يارب ولها حالات أخرى جائزة (فضلاً انظر في ذلك التطبيق النحوي. د. عبده الراجحي ص٢٨٤-٢٨٥ ط سنة ١٤٠٥هـ دار النهضة العربية (بتصرف).

٤٧- تاج العروس "رب"

٤٨- سورة يوسف٣٩.

٤٩- البحر المحيط ٣٨٢/١ (بتصرف).

٥٠- نفسه ٣٨٣/١.

٥١- الأصل في صيغة الأمر أن تفيد الإيجاب أي طلب الفعل على وجه اللزوم وقد يخرج إلى أغراض أخرى تفهم من السياق. فضلاً انظر في ذلك علوم البلاغة: أحمد المراغي. مراجعة محمود أمين النواوي ص٧٦ ط٦- (بتصرف).

٥٢- مقاييس اللغة (وَزَعَ).

٥٣- نفسه (وَزَعَ).

٥٤- ذكر بعض المفسرين هذا المعنى، فضلاً انظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، محمد بن محمد العمادي ٨٣/٨ دار إحياء التراث العربي. كذلك المفردات في غريب القرآن (وَزَعَ) (بتصرف). كذلك جامع البيان ـ الطبري ٢٦/١٥ كذلك، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ـ شهاب الدين الألوسي ٢٦/١٩ ط جديده ومنقحة ـ دار الفكر ـ بيروت (بتصرف).

٥٥- ذكرنا من قبل إنه قد يكون المقصود بالنعمة هي نعمة التوحيد فضلاً راجع ص ١٣ من هذا البحث.

٥٦- سورة إبراهيم (٧).

٥٧- فتح الباري في شرح صحيح البخاري ١٩٩/١١ ط السلفية.

٥٨- سنن ابن ماجه ـ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي (الدعاء) ط ١٩٥٢م - دار الكتب العربية عيسى البابي الحلبي.

٥٩- المسند ١١٧/٣، وكذلك انظر فضلاً، في فضل تكرار الدعاء وأهميته، كتاب المنتقى المختار من كتاب الأذكار، محي الدين يحيى بن شرف النووي. اختيار وترتيب محمد علي الصابوني ص٣٨٦. ط سنة ١٩٨٦م، مكتبة الغزالي.

٦٠- المفردات في غريب القرآن ـ الراغب الأصفهاني (حمد).

٦١- تاج العروس (شَكَرَ).

٦٢-تاج العروس (حمد) (بتصرف).

٦٣- الدعاء، عبدا لله الخضري ـ ص٢٥ (بتصرف).

٦٤- سورة الأحقاف ـ آية(١٥).

٦٥- البحر المحيط ٦٣/٧.

٦٦- التفسير الكبير. الإمام الفخر الرازي ٢١/٢٨، دار إحياء التراث العربي بيروت (بتصرف).

٦٧- سورة الكهف ١٠٣-١٠٤.

٦٨- التفسير الكبير ٢٨/٢٠.

٦٩- نفسه ٢٩/٢٠ (بتصرف).

٧٠- سنن ابن ماجه مقدمة ٢٠ كذلك سنن أبي داود وصايا ١٤.

٧١- مقاييس اللغة (صلح).

٧٢- مقاييس اللغة (هدي) (بتصرف).

٧٣- الفاتحة(٧).

٧٤- الفاتحة(٦).

٧٥- تأملات في سورة الفاتحة. د.حسن باجودة، ص١١٢ سلسلة دعوة الحق(١). الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي. (بتصرف).

٧٦-سورة الأحقاف ١٥.

٧٧- هذا سبب من أسباب حذف المفعول به وهو من إيجاز الحذف في المفرد ونظيره من القرآن: "فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى.." ونظيره من الأقوال البشرية قولنا: (زيد يعطي)، فضلاً انظر في ذلك. كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. يحيى بن حمزة العلوي الجهني ١٠٤/٢ إشراف وضبط جماعة من العلماء، دار الكتاب العلمية بيروت. ط بدون (بتصرف). كذلك كتاب خصائص التراكيب. دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني. د.محمد أبو موسى ص٢٧٣ ط٢ سنة ١٤٠٠هـ مكتبة وهبة القاهرة (بتصرف).

٧٨- روح المعاني ٢٦/١٩ (بتصرف).

كذلك الكشاف عن حقائق التأويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. أبوالقاسم جارا لله محمود بن عمر الزمخشري، ص٣/٥٢١ (بتصرف) ط الأخيرة ١٩٧٢م.

٧٩- روح المعاني ٢٦/١٩.

٨٠- في ظلال القرآن: سيد قطب ٢٦/٣٢٦٣ طبعة جديدة مشروحة. الطبعة الشرعية الحادية عشرةسنة ١٤٠٢هـ دار الشروق (بتصرف).

٨١- نفسه. نفس الصفحة.

٨٢- سورة الأحقاف ١٥.

٨٣- الأدب في الدين. أبو حامد محمد الغزالي. تحقيق عبدا لله أبوزينه ص١٤-١٥ ط٤. دار الشروق (بتصرف).

٨٤- التذييل: هو طريقه من طرق الإطناب، وهو تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها للتأكيد . وهو ضربان ضرب يخرج مخرج المثل وآخر لايخرج مخرج المثل، وهذا من الضرب الثاني، فضلاً انظر تفصيل ذلك في التلخيص في علوم البلاغة. القزويني الخطيب، ضبط البرقوقي ص٢٢٧ دار الكتاب العربي ببيروت.

٨٥- مقاييس اللغة (توب).

٨٦- نفسه. (سلم) (بتصرف).

٨٧- أساس البلاغة. جارا لله الزمخشري، تحقيق عبدالرحيم محمود، عرف به أمين الخولي.

*- البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي ٧/٦٣.

*- سورة الفتح ١-٣.

٨٨- سورة النمل، آية(١٩).

٨٩- جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٧/٢٦ (بتصرف).

٩٠- سورة النمل ١٩.

٩١- سورة الأحقاف ١٥.

٩٢- سورة النمل ١٨.

٩٣- سورة يوسف ١٠١.

٩٣- سورة الأحقاف ١٥.

*- سورة النمل ١٥.

٩٤- سورة النمل ١٨ سورة الأحقاف ١٥.

٩٥- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي ص٧٤ ط٩ سنة ١٩٧٣م (بتصرف).

٩٦- سورة النساء ٨٢.

٩٧- سورة الإسراء ٨٣، أيضا في نفس المعنى سورة يونس ١٠-١٢ وسورة الأنعام ٤٠-٦٣ وسورة الزمر ٨ وسورة فصلت ٥١ وغيرها.

٩٨- المسند. ٣٠٧/١.

٩٩- صحيح مسلم فضائل الصحابة ١٢ (بتصرف) ذكر الحديث ص١٣ من هذا البحث.

١٠٠- جامع البيان عن تأويل القرآن. ٢٦/١٧ (بتصرف).

مصادر البحث ومراجعه

١) القرآن الكريم..

- أ -

٢) الأدب في الدين. أبو حامد الغزالي. تحقيق محمد أو زينه ط٤ دار الشروق.

٣) الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة. د. فؤاد البهي السيد، ط١ دار الفكر العربي.

٤) الدعاء: عبدا لله الخضري، ط٢ سنة ١٩٨٣م، سلسلة تصحيح عقائد المسلمين وأعماهم. الدار السلفية ـ الكويت.

٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم. أبو السعود محمد بن العمادي، دار إحياء التراث العربي.

٦) أساس البلاغة. الزمخشري. جارا لله الزمخشري. تحقيق الأستاذ عبدالرحيم محمود. عرف به أمين الخولي، ط٢ سنة١٤٠٢هـ دار الفكر.

٧) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. مصطفى الرافعي ط٩ سنة ١٩٧٣م.

- ت -

٨) تأملات في سورة الفاتحة. د/ حسن محمد باجودة. سلسلة دعوة الحق، الأمانة العامة لرابطة العالم أسلامي (١).

٩) تاج العروس من جواهر القاموس. الزبيدي ـ محمد مرتضى الزبيدي ـ ط المطبعة الخيرية بجمالية مصر.

١٠) تحفة الأحوذي في شرح سنن الترمذي الطبعة السلفية.

١١) التطبيق النحوي. عبده الراجحي ط ١٤٠٥هـ دار النهضة العربية.

١٢) تفسير ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ط سنة ١٩٨١م دار الفكر.

١٣) تفسير البحر المحيط : أبو حيان/محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي ط٢ سنة ١٩٨٣م دار الفكر للطباعة والنشر.

١٤) تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن: أبو عبدا لله القرطبي. كتاب الشعب.

١٥) التفسير الكبير: الرازي. الإمام الفخر الرازي. ط٣ دار إحياء التراث العربي بيروت.

- ج -

١٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. أبو جعفر بن جرير الطبري، ط٣ سنة ١٩٦٨م مكتبة مصطفى الحلبي وشركاه.

- خ -

١٧) خصائص التراكيب: دراسة لمسائل علم المعاني. د. محمد أبو موسى ط٢ سنة ١٤٠٠هـ مكتبة وهبه القاهرة.

- ر -

١٨) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسع المثاني: شهاب الدين الألوسي، ط جديدة ومنقحة. دار الفكر بيروت.

- س -

١٩) سنن ابن ماجه: الحافظ أبو عبدا لله محمد بن يزيد القزويني. تحقيق وضبط محمد فؤاد عبدالباقي، ط سنة ١٩٥٥م دار إحياء الكتب العربية. عيسى الحلبي وشركاه.

٢٠) سنن أبي داود.

٢١) سنن الترمذي (الجامع الصحيح) أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف. دار الفكر بيروت.

– ص –

٢٢) صحيح مسلم. شروح النووي، ط٢ سنة ١٩٧٢م دار الفكر بيروت.

– ط –

٢٣) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. يحيى بن حمزة العلوي اليمني. ضبط وتحقيق جماعة من العلماء، إشراف الناشر. دار الكتب العلمية بيروت.

– ع –

٢٤) علوم البلاغة ـ البيان والمعاني والبديع. أحمد مصطفى المراغي، مراجعة محمود أمين النواوي، ط٦ سنة ١٩٧٢م المكتبة المحمودية التجارية. مصر.

– ف –

٢٥) فتح الباري في شرح صحيح البخاري، الطبعة السلفية. الكويت.

٢٦) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن على الشوكاني، ط٣ سنة ١٩٦٤م مكتبة مصطفى الحلبي وشركاه.

٢٧) في ظلال القرآن. سيد قطب. الطبعة الشرعية الحادية عشر سنة ١٩٨٢م. دار الشروق.

- ق -

٢٨) القاموس المحيط. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، ط٢ سنة ١٩٥٢م مكتبة مصطفى الحلبي .

٢٩) قصص الأنبياء. أحداثها وعبرها. محمد الفقي، ط١ سنة ١٩٧٩م مكتبة وهبه بيروت.

- ك -

٣٠) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. أبو القاسم جارالله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي. حقق الرواية محمد الصادق قمحاوي، ط الأخيرة سنة ١٩٧٢م شركة مطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه.

- م -

٣١) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي. لفيف من المستشرقين. نشر د.أ.ي. ونستك سنة ١٩٣٦م مكتبة بريل.

٣٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. وضع محمد فؤاد عبدالباقي، تقديم منصور فهمي. مطابع الشعب.

٣٣) معجم مقاييس اللغة. أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا. تحقيق عبدالسلام هارون. ط١ سنة ١٣٦٦هـ القاهرة دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي وشركاه.

٣٤) المسند. الإمام أحمد بن حنبل. الطبعة السلفية.

٣٥) المفردات في غريب القرآن. الراغب الأصفهاني: تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني. دار المعرفة بيروت.

٣٦) المنتقى المختار من كتاب الأذكار: محي الدين يحيى بن شرف النووي، اختيار وترتيب محمد على الصابوني، ط سنة ١٩٨٦م مكتبة الغزالي دمشق.